## أصحاب المعلّقات

### الفصل الرابع

# النّابغة الذُّبياني (تُوفّي نحو سنة ٦٠٤)

١ ــ **مكانه من عصره :**

١ً **مكانه السياسي :** ظهر النابغة الذّبياني في زمن اشتبكت قبيلته فيه بعدّة حروب أو مناوشات ، منها حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، ومنها احتكاك ذبيان بغسّان ؛ فكان الشاعر عيناً ساهرة على قومه وأحلافهم . ــ وظهر النابغة ايضاً في زمن اشتدّت فيه المنافسة بين الحيرة وغسان فعرف ان يستغلّ موقفه بين البلاطين الراغبَين فيه .

٢ً **مكانه الادبي :** ينتسب النابغة الى المدرسة الأوسيّة .

٢ ــ **حياته :**

١ً **نشأته :** نشأته غامضة لا نعرف شيئاً واضحاً عنها .

٢ً **شاعر الملوك :** عرف الشاعر بلاط الحيرة وحظي عند ملوكها ولاسيما النعمان ابو قابوس ؛ الا ان الحسّاد ، وموقف النابغة من غسان ومدحه للغساسنة ، كل ذلك اوغر صدر الملك عليه ، فهمّ بقتله ، فهرب الشاعر والتجأ الى الغساسنة فبالغوا في اكرامه ؛ الا انه كان يحنّ الى النعمان ويعتذر اليه حتى رضي عنه اخيراً . ــ وقد توفي النابغة نحو سنة ٦٠٤ .

٣ً **نفسيّته :** كان النابغة ينزع نزعةً أرسطقراطية كما كان شديد الاتزان .

٤ً **آثاره :** اشتهر بغسّانيّاته واعتذاريّاته ؛ وله معلّقة قالها لاسترضاء النعمان .

٥ً **النابغة شاعر البلاط :** كان شعره البلاطي مدحاً واعتذاراً . أما المدح فقد كان فيه متكسّباً ، كما كان عادةً مترفّعاً عن غير الملوك والامراء ؛ وكان مدحه يمتاز بصبغة خاصة من الفخامة والجلال وبالاكثار من النعوت وضرب الامثال .
واما الاعتذار فقد اتخذ فيه اسلوب التذلل والتخوّف والغلوّ . وكان اعتذاره وافر الدّهاء .

٦ً **النابغة شاعر السياسة :** تُقسم سياسته الى قَبَليّة ومُلكيّة .

ــ السياسة القَبَليّة : كانت غايته فيها دفع الأذى عن قبيلته وتعزيز شأنها ؛ وقد توسّل الى ذلك بالارشاد والدعوة الى الاتحاد والشفاعة .

ــ السياسة الملكيّة : استغلّ فيها ما كان بين امارة الحيرة وامارة غسان من تنافس .

٧ً **النابغة شاعر الوصف والقصة :** كان وصفه واسطة لا غاية يمتاز بالواقعيّة والاستطرادات ، والاسلوب القصصي . ولكنه لا يخلو من جود

٨ً **فنّه :** يقوم فنه على العناية والموسيقى والتشبيه الحسّي .

٢ً مكانه الادبي : المدرسة الأوسية :

١ ـ ما هي : إنَّ مَن يجيل الطرْف في آثار عدد من شعراء الجاهلية ، في ما

يتعلق بالناحية الفنية ، يلقى مدرسة شعريّة مضريّة ، ضمّت جماعةً من شعراء مضر أوغلوا في البادية إيغالاً شديداً وتأثروا بمدنيَّة بكر سكّان المـدن ، لما كان بين الفريقين من جوار ، ثم تأثروا ببعض ما لفارس التي اضطرّت ان تصانعهم لتأمين اسباب اتصالاتهـا باليمن وشرقيّ افريقية والحفاظ على سلامة القوافل المارّة ببلادهم . وقد تخرّجت تلك المدرسة الشعرية على اساليب **أوس بن حَجَر** ومذاهبه الفنيَّة في النظم .

**واوس بن حجَر** : شاعر من نُمير من تميم ، اتصل بعمرو بن هند ومدحه . وله ديوان طُبع في فينّة سنة ١٨٩٢ مع ترجمة المانية . **وشعره شديد الالتصاق بحياة البادية** فانها أوحت اليه بالمعاني البدوية وصقلت خياله ومسحت الفاظه بمسحة المتانة والخشونة ؛ وقد نزع أوس في خياله نزعة خاصة ، قد تكون من ثمار البادية ايضاً ، وهي تلك **النزعة الحسيّة المادّية** فاتصل خياله بحسّه اتصالاً شديداً فاذا الوصف في شعره حسي بارز التصوير . وظهرت في شعره ايضاً **النزعة التقليدية** ، فقلّد مَن سبقه ولاسيما امرؤ القيس . فجاء اسلوبه خطوةً ملموسة في مذهب التقليد الذي نجده عند كثيرين من الشعراء .

٢ – **ميزات شعر المدرسة الاوسيّة** : كانت المدرسة الاوسية **واقعية** شديدة الاتصال بين الخيال والحسّ ؛ فالجمال الفني عندها مستوحىً من المظاهر الطبيعية المحسوسة لا يدخل الى أعماق النفس ولا يحلل كوامنها ، فان كان هنالك بعض كلام على الاحوال النفسيّة الداخلية او الافكار والحكم فقد مثل بعض عناصرها تمثيلاً حسياً .

وكانت المدرسة الأوسية الى ذلك تنزع في الشعر **نزعة الاناة والرويّة** فـلا لاتندفع مع الطبع ، بل تسير في تؤدة وتفكير متطلبةً نوعاً من الفنّ . ولهذا كثر عند شعرائها التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وغير ذلك من ضروب التفنن والصناعة . إلا ان هذه الطريقة البيانية تختلف عن طريقة امرؤ القيس في التشبيه ، وذلك ان التشبيهات عند الملك الضِلّيل كانت في خطوتهـا الفنيّة الاولى القائمة بتراكم التشبيهات والإكثار منها ، وقد خطت مع المدرسة الاوسيَّة خطوتها

الثانية ، فكثر فيها الاصطناع والتعقيد ، يحفزها عامل التكسّب احياناً ، وعامل التحضّر احياناً أخرى .

**٣ ــ اهم شعرائها :** أهمّ شعراء المدرسة الأوسية في الجاهلية ، فضلاً عن أوس ابن حجَر مؤسّسها ، **النابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، والحطيئة .**

## ٣ً نفسية النابغة :

١ ــ **الارسطقراطية** : كان النابغة من أشراف قومه ، وكان في جميع أحواله ينزع نزعة ارسطقراطية تجمع بين الترّف وحبّ الترصّن والتعفّف ، وتميل به عن السوقة ومدحهم والتخلق بأخلاقهم ، حرصاً على كرامة النفس ، لا يسلك مسالك شائنة ، وإن اختلفت الروايات وتضاربت في هذا الشأن .

٢ ــ **الاتزان** : وكان الى ذلك **شديد الاتزان** الادبيّ ، راجح العقل ذكيّه ، تزينه الحكمة والرزانة ، وكان سديد الرّأي حسن الذوق ، دقيق الملاحظة ، واسع الخبرة فطناً ؛ وكان وفياً في جميع احواله ، إلا اذا دعا داعي السياسة والتكسّب ، فيصطنع الوفاء اذ ذاك بما ترتضيه السياسة والتلوّن وبما تقتضي الحال وشرعة الدهاء . ولكنّ الدهاء لم يمل بالشاعر مع الظالمين بل كان ابداً من انصار العدل ومن اشدّ الناس قسوة على الظلم والعدوان .

٣ ــ **اثر تلك النفسية** : وهذه الصفات بوّأته لدى قومه ولدى الملوك منزلة رفيعة ، كما أهّلته لان يُنصّب حكَماً في عكاظ وتضرب له ثمّة قبّة من أدَم فيقضي بين الشعراء ويحكم في مَن شعرُه الافضل ؛ وفي كل ذلك كان صاحب رأي ومشورة ، ينطق بالكلمة فيتردّد لها صدى في قلوب الكبار والعظماء ؛ ولكنّ الغنى لم يبطره ، والرفعة لم تخرج به عن حدود الكرامة والإباء .

## ٧ النابغة شاعر الوصف والقصة:

وُهب النابغة من قوة الخيال ودقة الملاحظة ما جعله وصّافاً ماهراً ومصوّراً

Scanned by CamScanner

حاذقاً، وقد اكسبته البادية والحاضرة ما زاد خياله صفاء وغنىً، وملاحظته دقةً وعمقاً. فأكثر من الوصف حتى ظهرت الصبغة الوصفية في جميع منظوماته سواء أكانت مدحاً ام رثاء؛ ام تغزلًا ام اعتذاراً.

١ – **اما موضوعات وصفه** فكثيرة؛ فقد وصف **الانسان** كالمتجرّدة ووصف **الحيوان** كالثور الوحشيّ، ووصف **الاشياء** كالفرات **والمشاهد الطبيعية**. إلا أن اوصافه تأتي في اكثرها **واسطةً لا غاية**، في استدارات يستخدمها الشاعر لتقوية فكرة المدح والاعتذار.

٢ – **واما ميزة وصفه** فتقوم قبل كل شيء **بالواقعية** التي امتازت بها المدرسة الاوسية. فوصفه من ثَمَّ وصفٌ حسيٌّ، يصدر عن مراقبة الحواس ويخاطب الحواس. ويصلُ الشاعر الى هذه الواقعية **بذكر التفاصيل والجزئيات**، على ما هو معروف من أساليب العرب الاقدمين، وهو **يختار الكلمات التي يلوّن بها الصورة ويختار العبارات التي تبرزها زاهية واضحة**، كاملةً في اشكالها والوانها. ولا يتردد الشاعر احياناً، على ما اتصف به من ايجاز واقتصاد في الالفاظ، عن الإطناب في الوصف وتقليب الرسوم المختلفة على المعنى الواحد، رغبة في الوصول الى الصورة التي يريد التعبير عنها، وحرصاً على ان تكون طبق الاصل. قال في وصف أفعى:

صِلٌّ صَفاً لا تنطوي منَ القِصَرْ ... طويلةُ الإِطراقِ من غَيرِ خَفَرْ [١]
داهيةٌ قد صَغُرَت منَ الكِبَرْ ... كأنّما قد ذهبتْ بها الفِكَرْ [٢]
مَهروتَةُ الشِدقَينِ حَولاء النَّظَرْ ... تَفتَرُّ عن عُوجٍ حِدادٍ كالإِبَرْ [٣]

وقال واصفاً شعرَ المتجرّدة في تشبيه رائع الدّقة:

وبِفاحِمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نَبتُهُ ... كالكَرمِ مالَ على الدّعامِ المُسنَدِ [٤]

(١) الصلّ: الحيّة الدقيقة الصفراء. الصّفا: العريض الاملس من الحجارة. الإطراق: الصمت والنظر الى الارض. الخَفَر: شدّة الحياء (٢) الدّاهية: البصيرة بمواقع اللدغ، والمنكرة العظيمة (٣) مهروتة الشّدقين: واسعتهما. تفترّ عن عوج: اي تفتح فمها عن انيابٍ عُوج (٤) بفاحم: بأسود؛ اراد بشعر فاحم. رَجْل: بين السُّبوطة والجعودة. أثيث: كثير، عظيم. الدّعام: الخشب المنصوب للتعريش. المُسند: الذي أُسند بعضه الى بعض. شبّه الشعر في طوله وغزارته بالكَرْم المائل على الدعائم، وهو اذا مال عليه غطّاه وتدلى عنه.

وعناية النابغة بالتفاصيل وباستيفاء التشبيه كثيراً ما تفسح مجالاً واسعاً للمخيلة فتسترسل في **استطرادات** لا يربطها بالموضوع إلا الرابط التشبيهي او الذهني. فهو في معلقته الداليّة مثلاً يرمي الى الاعتذار، فيفتتح كلامه بوصف الاطلال ثم ينتقل الى ناقته التي تبلّغه النعمان فيشبّهها بالثور الوحشي، فيتمثّله في اشد حالاته اضطراماً واحتداماً، ويصف العراك بينه وبين الكلاب؛ ثم يطلب الى النعمان ان يتروّى، فيضرب له مثل زرقاء اليمامة ويصف الحمام؛ ثم يشبّه النعمان بالفرات فيصف الفرات... وهكذا يخرج اكثر من نصف القصيدة عن نطاق الموضوع.

وفضلاً عن ذلك فان لخيال النابغة في وصفه **وثبات واسعة**، تمتدّ فيها الصورة امتداداً رائعاً، كما في وصفه لجيش الغساسنة الزاحف الى الغزو حيث يقول :

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حلّقَ فوقَهم ... عَصائبُ طَيرٍ تَهتدي بعصائبِ

زد على ذلك ان في وصف النابغة **مطابقة لمقتضى الحال**، فاذا وصف الصيد ظهرت في كلامه الغرابة الجاهلية؛ واذا وصف الملوك ظهرت في كلامه فخامة الحاضرة وترفها؛ واذا وصف المشاهد الطبيعية ازدان كلامه بالفن والروعة؛ واذا وصف المرأة لان منطقه واكتسى لطفاً وجمالاً.

الا ان وصف النابغة **لا يخلو من جمود وجفاف** احياناً. فقلما تمتزج نفسه بموصوفاته، وقلما يجد في الطبيعة ما يثير انفعالاته العميقة، فهو نوعاً ما جامدٌ امام المشاهد التي يصفها، يراها بعينه، ويسمع الاصوات باذنه، ويسجّل كل ما يرى وما يسمع. فهو بعيد عن تلك الثورة النفسية والعاطفية التي لمسناها عند امرئ القيس مثلاً ولكنه استعاض عن مزج نفسه بموصوفاته، أن بثّ فيها حركةً، وأوردها احياناً كثيرة **باسلوب قصصي**، ومن ثمَّ شاعت القصة في شعر النابغة.

لا يخلو الشعر الجاهلي من أساطير وخرافات تناقلها الناس ونظمها الشعراء، كما لا يخلو من اخبار أُخذت عن التوراة. فقد نظم عديّ بن زيد قصّة الحيّة وخدعها لآدم، وروى أميّة بن أبي الصلت في شعره قصة لوط وخراب سدوم، وخبر ابراهيم وتضحيته باسحاق.

فاراد النابغة ان يستغلّ فن القصة كوسيلة للوصول الى المدح او الاعتذار ، او النصح والارشاد . فروى قصة زرقاء اليمامة ورمى فيها الى حسن النظر في الامور والتروي في الحكم ؛ وروى قصة الثور الوحشيّ في عراكه مع كلاب الصيد ورمى فيها الى تصوير قوّة ناقته وسرعتها ؛ وروى قصة الحية التي غدر بها حليفها بعد ان أغنته ، والتي نجت من غدره وضربة فأسه وتعلمت ان لا تعود الى محالفته بعد ما رأت من كذب عهوده ؛ وقد ضرب الشاعر هذا المثل يعاتب بني مرّة على تحالفهم عليه وعلى قومه. وكانت رواية الحيّة هذه سابقة حسنة للامثال على ألسنة البهائم التي لم تشع الا بعد ظهور كليلة ودمنة في العهد العباسيّ ، وان كانت في الجاهلية شائعة على ألسنة الناس كما يشهد بذلك النابغة اذ يقول :

. . . كما لَقِيَتْ ذاتُ الصَّفا من حَليفِها وما انفكَّتِ الأَمثالُ في النَّاس سائِرَهْ . . .

## ٨ً فنه :

**١ ـ العناية** : كان النابغة من المدرسة الأوسيَّة التي تتأنّى في الشعر وتتأنّق في صوغه ؛ فلم يقل الشعر ارتجالاً ، ولم يرسله إرسالاً ، بل أكبّ عليه يثقّفه حتى ظهرت فيه آثار تلك العناية ، فكان **اللفظ فيه مختاراً جيّداً في مجمله** ، وبعيداً في أكثره عن الحوشيَّة المستكرهة ؛ كما كان **التركيب** ، في ما ثبت للنابغة من شعر ، **محكماً بعيداً عن الركاكة والاسفاف** .

**٢ ـ الموسيقى** : وتتصاعد من تراكيب النابغة وألفاظه **موسيقى حقيقية تنجم عن حسن التأليف بين الحروف والألفاظ ، وعن حسن اختيار البحور والقوافي .** وهذه الموسيقى كثيراً ما **تتناغم والمعنى** فتشتدّ في موضع الشدّة :

ـ تَقُدُّ السَّلوقيَّ المُضاعَفَ نَسجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[1]

(١) تقدّ : تقطع. السلوقيّ : أجود الدروع ، منسوب الى سلوق مدينة بالرّوم. الصفّاح : الحجارة العريضة . نار الحُباحب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء بتصادم حجرين . يقول : هذه السيوف تقطع الدرع المضاعف نسجها ، وتنزل الى الارض فتقدح بحجارتها شرراً .

ـ وهُم زحفوا لغسَّانٍ بزَحفٍ رحيبِ السَّربِ أرعَنَ مُرجَحِنٍّ [١]

وتلين في موضع اللين :

أَلَمحةً من سَنا بَرقٍ رأى بَصَري أمْ وَجهُ نُعمٍ بدا لي أم سَنا نارِ

ولكن هذه الموسيقى **لا تخلو من بعض الاصوات الناشرة او القاسية احياناً** ، كما في تتابع القافات في الشطر الاول من البيت التالي :

مَقالةُ أَن قد قُلتَ سَوفَ أَناله وذلك من تِلقــاءِ مِثلِكَ رائعُ

**٣ ـ التشبيه وما اليه :** وأما الركن الاساسي الذي يقوم عليه فنُّ النابغة في شعره فهو **التشبيه** . فقد أراد ان يجري فيه على طريقة امرئ القيس ، فأكثر من استعماله ، وعمد الى المحسوسات يشبّه بها . **ولكنه في الاجمال لم يبلغ شأو الملك الضلّيل في هذا المضمار .**

وقد عمد النابغة الى طرق أُخرى من أساليب البيان والمجاز ، حتى عدّ له بعضهم جملةً وافرة من **الاستعارات والكنايات** وما الى ذلك . ومن أجمل ما جاء في شعره من وجوه البديع قوله مادحاً في معرض الذمّ :

ولا عَيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

## ٩ً تأثير النابغة :

للنابغة الذبياني منزلة رفيعة في الادب العربي وقد ضمّن شعره ، فضــلاً عن البلاغة وقوّة البيان وجمال التعبير ، **فوائد تاريخية** جمّة اطلعنا فيها على التنافس بين الحــيرة وغسّان ومن ورائهما بين الساسانيين والروم ، كما اطلعنا على عادات المناذرة والغساسنة ، وعلى حياة القبائل البدويّة وحروبها وقوّاتها ، وحلفائها ،

---

(١) رحيب السّرب : واسع الصدر . الارعن : الذي له فضول ، او المضطرب لكثرتــه . المرجَحِنّ : المتمايل لثقله .

ومعدّاتها الحربية وما الى ذلك . وقد أبقى أثراً واسعاً في الاساليب الشعريّة سيظهر بنوع خاصّ عند الاخطل شاعر أُميَّة .

والنابغة هو الذي **فتح للشعر باب التكسّب** ، فذلله وقيَّده . فإن الشعر قبله لم يُقل عادةً في مدح إلا عند الشكر على صنيع . اما هو فقد احترفه مهنةً للتملّق والتكسّب ، فكان من ذلك :

١ً أن **ضاق أفق الادب العربي في قسم كبير منه** ، وغُضَّ من قدره اذ اصطبغ بلون ماديّ رخيص وأصبح أداةً ووسيلةً ، لا غايةً ولا ميداناً للفنّ الرّحيب . فنهج الكثيرون من الشعراء منهج النابغة في التكسّب .

٢ً أن اتخذ الشعر **وجهة ارستقراطية** ، وابتعد عن الشعب وعن الحيـاة الديمقراطية ، كما ابتعد عن النفس الانسانية في كثير من نواحيه ؛ وصار في خدمة الملوك وخدمـة المصالح الذاتية . فتوّفرت فيه أساليب التملّق ، كما توفرت فيه أساليب الزّخرفة والبيان والصنعة التي ستفشو بعد حين فشوّاً زرياً .

٣ً أن **افاد الشعراء من ذلك مالاً وسعة حال** لانهم وجدوا في أحضان الملوك والعظماء ما يغنيهم عن السعي في طلب العيش ؛ كما اجبرهم ذلك على الافتنان في توليد المعاني والأخيلة حتى أتوا احياناً بالرائع المعجب .